الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام1837م وردود فعل أعيان أريافها

الأستاذ: العياشـــي روابحي
قسم التاريـــخ
جامعة باجي مختار –عنابة

الملخـــص:

يتميـــز الشرق الجزائري بوجود عدة قوى محلية فاعلة، تحكمت إلى حد بعيد في توجيه الجماهير الريفية، ولعبت دورا سياسيا وعسكريا متميـــزا في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر. و تتمثل هذه القوى في مختلف الأسر الكبرى التي تهيمن على أريافه. ويحاول هذا المقال أن يسلط الضوء علـــى سقوط مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق تحت السيطرة الاستعمارية عـــام 1837م وموقف هذه الأسر المتنفذة من هذا الحـــدث، كمـــا يبـــين الخلفيـــة التاريخية لمواقفها المتباينة من ذلك، فهناك أسر تخندقت في صف المقاومـــة الوطنية بقيادة الحاج أحمد باي ودافعت عن مدينة قسنطينة، وفي مقابل ذلـــك هناك أسر أخرى فضلت الميل للاستعمار الفرنسي والتعاون معه.

بعدما أحكم الفرنسيون قبضتهم على الجزائر العاصمة عام 1830م، اتجهت أنظارهم إلى مدينة قسنطينة قصد احتلالها لما تنطوي عليه من أهمية إستراتجية، وفي هذا السياق، شنت عليها حملتين عسكريتين عام 1836م، و1837 على التوالي، وقد نتج عن الحملة الأخيرة سقوط المدينة، واحتلالها يوم 1837/10/13، وتبعا لدلك، فقد تباينت ردود فعل أعيان الريف القسنطيني الدين يمثلون زعماء الأسـر المنتقدة فما هو موقف هده الأسـر من هـذا الحدث؟

وما هـي خلفياتـه؟

والواقع أن احتلال هذه المدينة أصبح إلى حد كبير معروفا ومبسوطا في العديد من الدراسات التاريخية•، لذلك سأحاول التطرق إليه بإيجاز حتى نتمكن من الربط بينه وبين الأحداث التي نسوقها، وحتى نتمكن من فهم مواقف هذه الأسر من احتلال قسنطينة بشكل دقيق، لا بد لنا أيضا من تسليط الضوء ولو بصورة موجة عن علاقة هذه الأسر بالإدارة العثمانية منذ بداية الحكم العثماني إلى غاية مجيء الحاج أحمد باي عام 1826م، لأن تلك العلاقة هي التي ساهمت إلى حد بعيد في تحديد موقفها من هذا الحدث وعليه. أتناول هذا الموضوع بناء على النقاط الآتيـة:

1- علاقة الحكام العثمانيين بالأسر القسنطينية المتنفذة.
2- احتلال مدينة قسنطينة عام 1837م.
3- موقف الأسر القسنطينية من احتلال قسنطينة.

1- علاقـة الحكام العثمانيين بالأسـر القسنطينية المتنفذة.

عندما بسط العثمانيون سلطتهم على الشرق الجزائري وجدوا أسرا متنفذة تهيمن على أريافه وهذه الأسر هي: أسرة بوعكاز الذواودة، وأسرة

بن جلاب بجنوب البايلك القسنطيني، وأسرة أحرار الحنانشة، وأسرة بوعكاز بن عاشور وأسرة المقراني بشمال البايلك القسنطيني، وانطلاقا من القرن 18م ظهرت أسرة بن قانة بالجنوب القسنطيني، إن هذه الأسر المحلية الحاكمة في الريف القسنطيني، يسميها فيرو **Feraud** " الأســـر الشريفيـــة " **Les familles seigneuriale** "[1].

وقد اعترف الحكام العثمانيون باستقلال هذه الأسر، حيث كانت لهم قيادات، وإمارات مستقلة شاسعة إلى درجة انه يمكن، القول أن قيادة كل أسرة كانت تشكل دولة داخل دولة[2].

وقد كانت علاقة الحكام العثمانيين بهذه الأسر تتأرجح بين السلم والحرب. ففي حالة السلم، إستفاذ هؤلاء الحكام من هذه العلاقة حيث وظفوها في تثبيت أركان حكمهم في البايلك القسنطيني واستفادوا من نفوذ هذه الأسر وقوتها في القضاء على حركات التمرد والعصيان[3]، ويلاحظ أن هذه العلاقة كانت تتسم في بعض الأحيان، وعلى إثر ذلك فإن زعماء هذه الأسر ينفضون من حول هؤلاء الحكام وينضمون إلى الثورات المحلية وحركات العصيان المختلفة.

فعلى سبيل المثال ذكر الأب دان " **le père dan** " أن شيوخ أسرة المقراني شاركوا في ثورة ابن الصخري عام 1638م المناهضة للحكم العثماني لأن علاقاتهم مع السلطات العثمانية كانت غير منسجمة في تلك الفترة[4].

وقد فضل بعض الحكام العثمانيين اللجوء إلى مصاهرة زعماء هذه الأسر، فقد تزوج صالح باي قسنطينة (1771م-1792م) من إحدى بنات الباي أحمد القلي (1756-1771) الذي كانت زوجته من أسرة المقراني[5]

وهي نفس العلاقة التي نسجها الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة مع أسرة المقراني كذلك[6].

وقد ترعرع الحاج أحمد باي في أحضان أسرة بن قانة لأن أمه كانت تنحدر منها، وقد نالت هذه الأسرة حظوة ورعاية خاصة حيث منحها منصب "شيخ العرب"• بعدما انتزعه من عائلة بوعكاز الذواودة التي كان على رأسها فرحات بن السعيد. وقد كان هذا الإجراء سببا في تجدد الصراع بينهما بالجنوب القسنطيني، كما تسبب في اضطراب العلاقة بينه وبين أسرة بوعكاز الذواودة[7] أما علاقة الحاج أحمد باي بأسرة بوعكاز بن عاشور بفرجيوة، فقد كانت قوية ومتينة[8] وهي ذات العلاقة التي كانت تربطه بأسرة أحرار الحنانشة حيث أشار في مذكراته إلى هذه العلاقة[9].

ومن خلال ما تقدم، نخلص إلى القول أن الحكام العثمانيين سعوا إلى كل الوسائل التي تساعدهم على ربط علاقات ودية مع هده الأسر، بما في دلك رابطة المصاهرة لكي يساعدهم على تثبيت حكمهم بالبايلك القسنطيني.

2- احتـــلال مدينة قسنطينة عـــام 1837

الواقـــع أنه بعد استيـــلاء الفرنسيين على الجزائر العاصمـــة في 1830/07/05م اتجهت أنظارهم مباشرة إلى الشرق الجزائري لاحتلال عاصمتـــه مدينة قسنطينـــة، فقد صرح الحاكم العـــام الفرنسي دوروفيغو DE ROVIGO (1831-1833) أن فرنسا لا يمكنها بحال من الأحوال أن تثبت أقدامها على أرض الجزائر دون السيطرة على مدينة قسنطينة، والشرق الجزائري بصفة عامة[6].

وحتى يتحقق لهم ذلك، كان عليهم السيطرة على مدينة عنابة نظرا لأهميتها الاقتصادية والإستراتيجية، حيث تشكل المنفذ البحري الرئيس لبايلك

الشرق الجزائري، لذلك كانت ثاني مدينة مستهدفة من قبل قوات العدو، وعليـــه أمر الجنيـــرال دوبرمون بتجهيز حملة عسكرية ضد المدينـــة يوم 1830/07/26 [7].

وقد اعتبر منظرو السياسة العسكرية الفرنسية آنذاك أنه لا مناص من احتلال هذه المدينة لأن إنتفاء السيطرة عليها يعني بالضرورة إنتفاء السيطرة على مدينة قسنطينة[8].

وعلى إثر إستيلاء الفرنسيين عليها عام 1832م، تخوف الحاج أحمد باي، وأدرك النوايا العدوانية للمحتل، لذا جعل من شرط الجلاء عن المدينة شرطا أوليا واقفا لا بد من توفره قبل التفاوض عن أي صلح بينه وبين قوات الإحتلال[9].

وفي 1836/01/21م تلقى المملوك يوسف• أمرا من الماريشال الفرنسي كلوزيل **Clauzel** يأمره فيه بإحتلال مدينة عنابة، وتنفيذا لهذا الأمر قام هذا الأخير بشن حملات وحشية ضد سكان المنطقة وعاث فيها فسادا وارتكب جرائم فظيعة طالت النساء والأطفال والشيوخ[10].

ويذكر " شارل أندري جوليان " **Charles-André Julien** أن المملوك يوسف هو مهندس هذه الحملة الذي حفز وأقنع الماريشال كلوزيل على القيام بعمل عسكري ضد مدينة قسنطينة قصد إخضاعها، وعليه شنت حملة عسكرية في نوفمبر عام 1836م، وفيها ابتلع الجيش الفرنسي إهانته ومني بكارثة عسكرية وسيكولوجية خطيرة[11].

واتخذ مناوئوا "كلوزيل" من هذه الهزيمة مسوغا لتوجيه انتقاداتهم ضده حيث أتهم بقلة التجهيز للحملة، وبالانفرادية في اتخاذ القرار[12]. والحق أن هذه النكبة أحدثت ضجة كبرى في الأوساط السياسية والعسكرية الفرنسية انتهت

بالتضحية بالمارشال كلوزيل والتخلي عن خدماته وتعويضه بالماريشال دامريمون[13].

ويبدو أن الماريشال الجديد وقف على مواطن القوة وبواطن ضعف الحملة العسكرية السابقة ضد مدينة قسنطينة، لذا عمل كل ما في وسعه من أجل تلافي عوامل الهزيمة، وفي هذا الإطار فقد استدعى النقيب " فولتـــز " **Foltz** الذي كان مقيما بتونس وكلفه بمهمة سرية "استعلامية" حول الوضع العام بقسنطينة وطلب منه إعداد تقرير مفصل حول ذلك، وتزويده بمعلومات حول القوة العسكرية للحاج أحمد باي، وفي ضوء هذا التقرير تشن حملة عسكرية ثانية، وبهذا فإن إدارة الاحتلال عملت على توفير شروط نجاح الحملة الثانية خاصة بعد اطمئنانها على الجهة الغربية من البلاد التي عقدت بشأنها معاهدة التافنة في ماي 1837 مع الأمير عبد القادر[14].

وفي 1837/10/05 بلغت الحملة العسكرية الثانية سطح المنصورة، ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها جيش الحاج أحمد باي والتي أودت بحياة الماريشال دامريمون في 1837/10/12، إلا أنها استطاعت احتلال المدينة، وبذلك سقطت قسنطينة عاصمـــة بايلك الشرق فـــي قبضة المحتـــل في1837/10/13[15].

وبسقوط هذه المدينة، تكون الإدارة الاستعمارية قد بلغت الهدف الذي خططت له مباشرة بعد احتلالها للجزائر العاصمة، وهو السيطرة على عاصمة الشرق الجزائري رغم المقاومة الباسلة التي أبداها الحاج أحمد باي.

3- موقف الأســـر القسنطينية من احتلال قسنطينة

الواقع أن علاقة التطاحن والصراع التي سادت بين بعض الأسر القسنطينية، بل وبين فروع بعض الأسر كأسرة المقراني خلال العهد

العثماني، والسياسة التي درج عليها الحكام العثمانيون إلى غاية فترة حكم الحاج أحمد باي تجاه هذه الأسر، كانت قد أثرت بشكل أو بآخر على موقفها من احتلال مدينة قسنطينة، حيث تباينت مواقفها حول ذلك، فمنهم من فضل التخندق في صف المقاومة الوطنية الرسمية والدفاع عن المدينة إلى جانب قوات الحاج احمد باي، ومنهم من ارتمى في أحضان الاستعمار الفرنسي وفضل الخضوع له.

فقد هب رؤساء الأسر المتحالفة مع الحاج أحمد باي لنصرته بعد الزيارة التفقدية التي قام بها هذا الأخير في جوان 1836م إلى مختلف القبائل[16]، وقد ذكر الحاج أحمد باي في مذكراته بعض القادة الذين لبوا نداءه و منهم الشيخ رزقي عن أسرة الحنانشة، وأحمد المقراني، ومحمد بن عبد السلام المقراني، ولد عبد الله المقراني عن أسرة المقراني وبوعزيز بن قانة شيخ العرب عن أسرة بن قانة، والشيخ بوعكاز بن عاشور بفرجيوة[17].

وبعد انكسار الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة عام 1836، قام الحاج أحمد باي بمراسلة شيوخ قبائل الشرق الجزائري، طالبا منهم الوقوف وقفة رجل واحد في مواجهة التهديدات الفرنسية[18].

وقد وقفت أسرة المقراني إلى جانب الحاج أحمد باي في مقاومته للقوات الغازية عن طريق زعيمها أحمد بن محمد المقراني أثناء الحملتين الفرنسيتين على قسنطينة، وتمكن فرسانه من توجيه ضربات موجعة لقوات الاحتلال خاصة أثناء الحملة العسكرية الأولى عام 1836، واستمر أحمد بن محمد المقراني في وفائه إلى الحاج أحمد باي حتى بعد سقوط مدينة قسنطينة عام 1837، حيث اتصل به وخيره بين الإقامة في قلعة بني عباس، أو في جبال المعاضيد بقيادة المقراني، لكن الباي فضل الانسحاب جنوبا حيث روابطه العائلية عند اسرة بن قانة بالصحراء[19].

وإذا كانت علاقة الحاج أحمد باي بأحمد بن محمد المقراني ودية فإنها ليست كذلك مع أبناء عمومته. و تذهب بعض المصادر الفرنسية إلى أن صهر الحاج أحمد باي محمد بن عبد السلام المقراني وهو من أبناء عمومة أحمد بن محمد المقراني حاول الاتصال بالفرنسيين لطلب الأمان انطلاقا من عدة مراسلات تمت بينه وبينهم، غير أنهم صرفوا عنه النظر. وسبب عدم اكتراثهم بطلبه، فقد اتجهت أنظاره رفقة بعض الزعماء الآخرين إلى باي تونس. وكان محمد بن عبد السلام سيء الحظ، حيث تمكن الحاج أحمد باي من العثور على أحد مراسلاته، فألقى عليه القبض وتم إيداعه بسجن القصبة الذي فر منه إثر الحملة الفرنسية التي شنت على قسنطينة عام 1837م مستغلا في ذلك حالة الفوضى التي عمت المدينة إثر سقوطها[20].

والواقع أن هذا الخبر يجوز فيه النظر، وما يؤكد هشاشته أن الحاج أحمد باي يذكر في مذكراته أن الشيخ عبد السلام المقراني كان ضمن الزعماء الذين لبوا نداءه لمواجهة الاحتلال الفرنسي كما قدمنا.

أما أسرة الحنانشة، فقد وقفت هي الأخرى إلى جانب الحاج أحمد باي في دفاعه عن مدينة قسنطينة، لأن الشيخ رزقي قائدها كان ضمن القادة الذين ذكرهم الحاج أحمد باي في مذكراته، و ذلك في معرض حديثه عن الزعماء الذين لبوا نداءه لمواجهة الاحتلال الفرنسي حينما كان يهدد مدينة قسنطينة، وقد أشرنا إلى هذه المسألة سابقا.

ويبدوا أن أسرة الحنانشة كانت علاقتها بالحاج أحمد باي تشبه إلى حد ما علاقة أسرة المقراني بهذا الباي، فإذا كانت مواقف هذه الأخيرة متباينة من هذا الباي بين مناصر ومعارض له، فإن أسرة الحنانشة كانت هي الأخرى كذلك، إلا أن الفرق بينهما أن هذه الأخيرة انتصبت شوكة مغروسة في حلق الاستعمـــار رغم الخلافـــات القائمة بين بعض زعمائها والحاج

أحمد باي، حيث قام هذا الأخير باعتقال الحسناوي بن بلقاسم شيخ الحنانشة، وعين خلفه كاتبه الشيخ رزقي، غير أنه تمكن من الفرار من السجن، فانفض من حول الحاج أحمد باي وتسممت العلاقة بينهما[21]، ورغم ذلك فقد كان الشيخ الحسناوي يتواصل مع الحاج أحمد باي منذ أن انتقل إلى مدينة عنابة للذود عنها عام 1832، حيث طلب منه المجيء قصد تحريرها أو على الأقل تزويده بمقاتلين، غير أن الحاج أحمد باي لم يتمكن من تلبية طلبه لأنه كان في وضع حرج ونصحه بقطع طريق المواصلات بين عنابة وقسنطينة [22].

أما أسرة بوعكاز بفرجيوة، فقد وقفت موقف المدافع عن مدينة قسنطينة إلى جانب قوات الحاج أحمد باي وقد أشار إلى ذلك الحاج أحمد باي في مذكراته كما قدمنا.

وقد ظل شيخها ثابتا على موقفه المقارع للاستعمار والمؤيد للحاج احمد باي. فبعد سقوط مدينة قسنطينة في قبضة المحتل عام 1837، بقي شيخها يتابع بإهتمام كبير مقاومة الحاج أحمد باي ويعطف عليه عطفا كبيرا، وكان متفائلا بانتصاره على القوات الاستعمارية الغازية[23].

وما يقال عن موقف أسرة المقراني، وأسرة أحرار الحنانشة وأسرة بوعكاز بن عاشور من احتلال مدينة قسنطينة، يقال كذلك عن موقف أسرة بن قانة من هذا الحدث، فقد كان زعيمها بوعزيز بن قانة إلى جانب الحاج أحمد باي في الدفاع عن المدينة، غير أنه بعد سقوط المدينة تحت السيطرة الاستعمارية حدثت تطورات حاسمة على موقف هذه الأسرة أدت إلى بتر العلاقة بين الحاج احمد باي وزعماء هذه الأسرة.

وفي هذا السياق يذكر الحاج أحمد باي في مذكراته أنه بعد سقوط المدينة انسحب المقاومون بزعامته واستدعى كل القادة واقترح عليهم تجميع

النساء والأطفال والشيوخ، وكل الممتلكات المنقولة الثمينة التابعة للباي وسائر قادته، و– قد عبر عنها بالزمالة –، ثم التوجه جنوبا حيث الصحراء الآمنة، وفي نفس الوقت إرسال جيش يقوده الباي نفسه يتجه إلى مدينة عنابة ويتمركز بإحدى النقاط الرئيسة في الطريق الرابط بين قسنطينة وعنابة من أجل قطع حركة المرور بين المدينتين، وقد لاقت هذه الخطة استحسانا من لدن مرافقي الحاج أحمد باي، وكادت أن تدخل حيز التنفيذ لولا اعتراض شيخ العرب بوعزيز بن قانة الذي صاح قائلا " ماذا تريدون أن تفعلوا: تبتعدون عن بلدكم وتتوجهون نحو الشمال إذن، فأنتم لا تعلمون أن فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة، فإنكم تعرضون أنفسكم للطرد من منطقتكم، ولذلك يجب أن نسرع إلى الصحراء ندخل عائلاتنا ومن اتبعنا إلى المدن، ثم نخرج متحدين ضد العدو الذي نخشى هجومه أكثر، فالفرنسيون لن يتقدموا بينما فرحات يزحف علينا، ومن ثمة يجب أن نبدأ بمحاربته وبعد ذلك نوحد قوانا ونهاجم الفرنسيين "[24].

وبفعل قلة أنصار الحاج أحمد باي، فقد أذعن إلى رأي خاله وعدل عن خطته الحربية السالفة الذكر، فاتجه إلى الصحراء[25].

وكان ذلك خطأ إستراتيجيا كبيرا و "مصابا عظيما" بالنسبة للحاج أحمد باي[26]، لأن بوعزيز بن قانة كان قد مال للإدارة الإستعمارية التي عينته شيخا للعرب في 1839/01/14[27]. وبهذا وضعت أسرة بن قانة نفسها في خدمة الإدارة الإستعمارية رغم أنها وقفت موقف المدافع عن مدينة قسنطينة.

وإذا كانت الأسر السابقة الذكر وقفت موقف المعادي للاحتلال، وتخندقت في صف المقاومة الوطنية التي أعلنها الحاج أحمد باي، فهناك أسر

أخرى تبنت موقفا سلبيا من هذه المقاومة حيث تعاونت مع قوات الاستعمار ورفضت المشاركة في الذود عن مدينة قسنطينة، وهذا الكلام ينطبق على أسرة بوعكاز الذواودة، و أسرة بن جلاب بالجنوب القسنطيني، فما هي خلفيات هذا الموقف السلبي؟.

لقد كان الصراع عنيفا بين أسرتي بوعكاز الذواودة وبن قانة، وهذا الصراع كان موروثا عن العهد العثماني، وكان يتمحور حول المكاسب السياسية والمراكز الإدارية الحساسة بمنطقة الزيبان[28]، وقد استفحل هذا الصراع منذ أن قام الحاج أحمد باي بانتزاع منصب شيخ العرب من أسرة بوعكاز الذواودة باي بانتزاع منصب شيخ العرب من أسرة بوعكاز الذواودة ومنحه إلى أسرة بن قانة كما رأينا سابقا.

ويذكر الحاج أحمد باي في مذكراته أن الأمير عبد القادر حاول تأليب سكان بايلك الشرق الجزائري ضده حيث كتب " وقبل احتلال مدينة قسنطينة بمدة قصيرة، كان الحاج عبد القادر قد كتب إلى العرب يخبرهم بأنه أبرم الصلح مع الفرنسيين الذين اعترفوا بسيادته على كامل أنحاء البلاد، وعليه يطلب منهم أن يتخلصوا من سلطاني، ويدخلوا في طاعته وإذا لم تفعلوا ذلك، فإنني أثير عليكم الفرنسيين، وفي وقت وجيز ستسحقكم قواتي وقواتهم "[29].

ولم يستجب إلى دعوة الأمير عبد القادر أحد باستثناء فرحات بن السعيد الذي كان على رأس أسرة بوعكاز الذواودة حيث عينه خليفة له في الصحراء[30].

وبهذا يمكن القول أن ميل فرحات بن السعيد إلى الأمير عبد القادر كان نكاية في الحاج أحمد باي الذي انتزع من أسرته منصب شيخ العرب ومنحه إلى أسرة بن قانة كما قدمنا.

ويلاحظ أن هذا الزعيم حاول اللعب عن الحبلين، فهو خليفة للأمير بمنطقة الزيبان، وفي نفس الوقت كان يحاول الاتصال بالفرنسيين ولما بلغت هذه الأخبار مسامع الأمير أمر بإنهاء مهامه واعتقاله[31].

ويذكر الماريشال فالي **Valee** في إحدى مراسلاته الموجهة إلى السلطات الفرنسية أن زعيم الزيبان فرحات بن السعيد - " ثعبان الصحراء "- **serpent de desert** كما يسميه -حشد قوة عسكرية تعدادها 1000 فارس وتقدم بها إلى قسنطينة، وبلغ أسوار هذه المدينة مباشرة بعد سقوطها وتحديدا يوم 1837/10/27، طالبا منه مواصلة الحرب ضد الحاج أحمد باي، وعندما امتنع عن ذلك صرح قائلا أنه يواصل حربه ضد هذا الباي وأنه سوف يبذل قصارى جهده لإلقاء القبض عليه حيا أو ميتا[32].

وبالفعل فقد خاض حربا ضد قوات الحاج احمد باي وانتصر على قواته واحتجز منهم عدد قليل من الرهائن لكي يتباهى بهذا الصنيع أمام السلطات الإستعمارية ويتقرب أكثر منها، بل أكثر من ذلك أنه صمم على أنه لن يراسل إلا الماريشال فالي ويفاوضه حول ذلك[33].

وقد أدرك الفرنسيون ضعف شخصية هذا الزعيم لأنه لم تكن لديه قضية يدافع عنها وإنما كان يتبنى قضية شخصيته ليس إلا[34]، لذلك كانت كل طلباته واتصالاته بالإدارة الفرنسية الرامية إلى القضاء على مقاومة الحاج أحمد باي تقابل بالتسويف وغالبا ما كانت تصرف عنها النظر[35]. وبهذا يمكن القول أن أسرة بوعكاز الذواودة ساهمت إلى حد ما في إضعاف المقاومة الرسمية التي تزعمها الحاج أحمد باي من خلال موقفها السلبي الذي وقفته حيث أنها لم تنضم إلى المعسكر الرافض للاستعمار والمدافع عن مدينة قسنطينة.

أما أسرة بن جلاب فقد وقفت هي الأخرى موقفا سلبيا من احتلال مدينة قسنطينة، وذلك بناء على علاقتها غير المنسجمة مع الحاج أحمد باي قسنطينة.

والواقع أن موقف هذه الأسرة من احتلال مدينة قسنطينة، هو في واقع الأمر إمتداد لمواقفها السابقة من الإستعمار الفرنسي، فقد دخلت في علاقات مع الإدارة الإستعمارية عن طريق علي بن جلاب الذي اتصل بالفرنسيين عام 1833م حينما أرسل خطابا إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر العاصمة عارضا عليه التعاون معهم قصد الإطاحة بحكم الحاج أحمد باي[36] بل أكثر من ذلك، فإن تعاون هذه الأسرة مع الاحتلال الفرنسي لم يتوقف عند هذا القـــدر حيث أن سلطان الأسرة عبد الرحمن شيخ توقرت أرسل خطابـــا إلـــى الحاكم العام الفرنسي الجنرال فوارول **Voirol** بتاريخ 1834/02/24 عرض فيه فكرة التعاون مع الإدارة الإستعمارية بهدف تحطيم شوكة الحاج أحمد باي، وحتى يبدي حسن نيته للإدارة الإستعمارية، فقد أرسل له إبنه علي بن جلاب لكي يحتجزه كرهينة طيلة فترة التفاوض، وقد إقترح السلطان عبد الرحمن على السلطات العسكرية الفرنسية التمركز بمدينة عنابة، ويقوم بتزويدها بعدد غير قليل من الفرسان لأنه يملك جيشا يتألف من زهاء 1000 فارس وعدد معتبر من المشاة ليضم قواته إلى القوات العسكرية الفرنسية للتوجه إلى قسنطينة قصد احتلالها والإطاحة بالحاج أحمد باي[37].

وفي 1834/03/15 تلقى السلطان عبد الرحمن ردا من الجنرال فوارول **voirol** يتضمن خطة أولية لإحتلال مدينة قسنطينة حيث إقترح أن تشن القوات الفرنسية حملة عسكرية ضد مدينة قسنطينة انطلاقا من مدينة عنابة، وفي الوقت نفسه تنطلق حملة عسكرية موازية يشنها السلطان عبد الرحمن رفقة القوات الفرنسية انطلاقا من الصحراء، وفي هذه الحالة يكون

الحاج أحمد باي محاصرا بين فكي كماشة (أي بين القوات الفرنسية المنطلقة من مدينة عنابة وقوات السلطان عبد الرحمن المنطلقة من مدينة توقرت) الأمر الذي يسهل عملية سحق الحاج أحمد باي وسائر المتعاونين معه[38].

وبعدما أحكم الفرنسيون قبضتهم على مدينة قسنطينة عام 1837 واصل سلطانها اتصالاته بالسلطات العسكرية الفرنسية قصد التعاون معها[39]، والثابت أن موضوع الإطاحة بالحاج أحمد باي ومحاولة القضاء على مقاومته شكل إحدى النقاط المركزية في هذه المراسلات.

وبهذا يمكن القول أن أسرة بن جلاب كانت قد مالت إلى الإدارة الاستعمارية منذ البداية وتمسكت بموقفها المؤيد للاستعمار والمناهض للمقاومة الوطنية، وبقيت على موقفها حتى بعد سقوط مدينة قسنطينة في قبضة الإحتلال الفرنسي عام 1837.

وفي الختام نرى أن السياسة التي درج عليها الحكام العثمانيون وبايات قسنطينة تجاه الأسر القسنطينية المتنفذة هي التي صنعت مواقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة. فعلاقة الحاج أحمد باي غير المنسجمة ببعض الأسر هي التي دفعت بهم دفعا إلى الميل نحو الفرنسيين، وهو موقف مشين ممجوج لأن الارتماء في أحضان الغزاة لا مسوغ له، فمهما اختلفت هذه الأسر مع الحاج أحمد باي ومهما تباينت مواقفها معه واصطدمت مصالحها فيما بينها، فإن التعاون مع الاستعمار والاحتماء به سلوك مرفوض، فكان عليها أن تضع خلافاتها جانبا وتقف وقفة رجل واحد في مواجهة الإستعمار الفرنسي وذلك من باب أولى.

الهوامـــش

- – حول تفاصيل الحملتين الفرنسيتين على مدينة قسنطينة، أنظر:
- – عبد الكريم بحاجة: معركة قسنطينة 1836–1837، تعريب محمد الهادي لعروق، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1984.

وأنظر كذلك:

- Ernest mercier : les deux sièges de Constantine 1836, 1837, librairie L. poulet, Constantine 1896.
- H'sen derdour : Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, Tome II, les presses de Dar el houda, Ain M'lila, Algérie 2004.
- Abdeljelil Tememi : le Beylik de Constantine et hadj Ahmed bey 1830-1837, presses de la société tunisienne des arts graphiques, Tunis, Tunisie 1978.

[1] –Charles Féraud : » les Hrar, seigneurs des Hanencha, études historiques sur la province de Constantine » in, Revue Africaine N° 18, année 1874, p13.

[2] –Charles féraud ; ibid, p23.

[3] –Armaud : « les bendjellab sultans de Touggourt , notes historiques sur la province de Constantine » in, Revue Africaine N° 23 année 1879, p269.

[4] - François trinutaire : Le père Dan: histoire de la barbarie et de ses corsaires, 2ème édition, Paris, France, 1649, p132.

[5]– فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الثاني من القرن 13هـ، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة تونس الأولى 1998، ص 111.

•– كانت أسرة بوعكاز الذواودة أول أسرة صحراوية متنفذة تتحصل على هذا اللقب في بداية الحكم العثماني، وهو لقب إتخذ طابعا رسميا جاء ليعوض اللقب القديم: أمير العرب، حول هذا الموضوع، أنظر:

*- Charles Féraud : « les descendants d'un personnage des milles et une nuit en Algérie » in, Revue Africaine, n° 32, année 1878, p 233.

[6]– حميدة عميراوي: جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري – بداية الإحتلال– دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1984، ص48.

[7] – H'sen Derdour : op, cit, p 230.

[8] - Paul Azan : l'armée d'Afrique de 1830 à 1852, collection du centenaire de l'Algérie, Paris France 1936, p190.

[9]- حميدة عميراوي: دور حمدان خوجة في القضية الجزائرية (1827-1840) دار البعث، قسنطينة، 1987، ص 127.

•- اختلف المؤرخون في تحديد أصل المملوك يوسف، فمنهم من يرجعه إلى أصول إيطالية، ومنهم من يرجعه إلى أصول يهودية ليفورنية، ومنهم من قال أنه توسكاني الأصل، والثابت أنه عديم الأب والأم، سقط أسيرا في جزيرة ألبا، ونقل إلى تونس وظل خادما في قصر الباي، إلى غاية ارتكابه جريمة أخلاقية مشينة تسببت في هروبه إلى الجزائر خوفا على روحه، وعلى إثر الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م اتصل بالسلطات العسكرية عارضا عليها خدماته، فاستقبلوه بصدر رحب واستشاروه في عظائم الأمور العسكرية، فلعب دورا مركزيا في محاربة الجزائريين. حول المملوك يوسف ونشاطه داخل الجيش الفرنسي أنظر :

* H'sen Derdour : op. Cit, pp 258-261.

[10] -Charles- André Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine (1827-1871), Paris , France 1964, p,p 93,94.

[11] - Charles André julien : ibid : p 132.

[12]- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 160.

[13] - Charles André julien : op, cit , p 133.

[14] - Abdeldjelil Tememi : op.cit, p193.

[15]- صالح فركوس : المرجع السابق، ص 73.

[16] - Ernest Mercier : op cit, p 48.

[17]- محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 69.

[18]- حميدة عميراوي: المرجع السابق، ص 183.

[19] - Louis Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Alger, Jourdan 1891, p20.

[20] - Charles Féraud « Histoire des villes de Constantine Bordj bouarréridj » in R.S.A.C Constantine, 1872 p 310.

[21]– حفناوي بعلي: " صانعو ملاحم الأرياف في الشرق الجزائري"، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، العدد 6، 2002، ص، ص، 354، 355.

[22] – Capitaine Maitrot : Bône militaire, Bône 1912, p 349.

[23]– صالح فركوس: المرجع السابق، ص، ص 97

[24]– محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص، ص 76، 77.

[25] - Charles Féraud : op.cit, p311.

[26]– محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 77.

[27] - Bouaziz Bengana : le cheikh el arab étude historique sur la famille Bengana, Alger 1930, p64.

[28]– إبراهيم مياسي: لمحات من جهاد الشعب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص52.

[29]– محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 80.

[30]– إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 53

[31]– إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 59.

•– سليفـــان شارل فالي **sylvan- charles valée**، ولد بتاريـــخ 1773/12/17 ببريان لوشاتو **Brienne le château**، انظم إلى الجيش الفرنسي كتلميذ ضابط في مدرسة المدفعية في شالون عام 1792، تخرج منها برتبة ملازم في 1793/06/01، ثم رقي إلى رتبة نقيب في 1795/04/27، فمقدم في 1804/06/07، وفي 1807/01/12 رقي إلى عميد، ثم جنرال فرقة في 1809/07/28 ثم جنرال قسمة في 1811/08/06، ومفتش عام للمشاة (1822–1830) وفي 1830/09/08 أحيل على الاستيداع، استدعي إلى الخدمة الفعلية عام 1834، وأخيرا رقي إلى رتبة ماريشال في 1837/11/11، ثم عين حاكما عاما بصفة نهائية على الجزائر في 1837/12/01 مارس بهذه الصفة لمدة ثلاث سنوات وشهر و 20 يوما، عاد إلى فرنسا في 1841/01/20، قضى نحبه في 1846/08/15، ولمزيد من المعلومات حول الماريشال فالي أنظر:

-Georges yver : correspondance du maréchal valée, tome I (octobre 1837-mai 1838), la rose, Paris V, France, 1949, voir l'introduction pages non numérotées. Voir aussi :

-Anonyme : « Histoire de l'Algérie, liste chronologique des gouverneurs généraux de l'Algérie » in, Revue Africaine n° 31, année 1887, p 429.

[32] – Georges yver : op. Cit, p 48.

[33] - Georges yver : IBID P 14.

[34]– أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث – بداية الاحتلال – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982 ص 96.

[35] - Pellissier de Reynaud : Annales Algériennes, Paris France, 1854, p 246.

[36] - Charles Féraud : Histoire des sultans de Touggourt et du sud algérien, présentation Kamel Chelrit, éditions grand Alger livres, 2006 p,p 120, 121.

[37] – Esquer Gabriel : Correspondance du général Voirol (1833-1834), Paris, France, 1924, p,p 428,429.

[38] –Esquer Gabriel : ibid, p, p 466, 467.

[39] -Charles Feraud : op. cit, p 128.